هو الأجل المحتوم لي جدّ جدّه ۞ وكان يزيني عقله المتواني ۞
له بدّ قد أدنى لهجمه ۞ له لست منها آخذاً بأماني ۞
ولا بدّ منه ممهلاً أو معاجلاً ۞ شبابي ولا انتبه عني تأني ۞
وأول هذه القصيدة وهو داخل في هذا المعنى ۞
إذا ما تعدت بخطو سارت محفّة ۞ لها أرجل يسعى بها رجلان ۞
وما كنت من فرسانها غير أنها ۞ وقت لي علماً خلف العدمان ۞
ترى البها عن سراه حصاني ۞ بحكم مشيئاته بحكم قراني ۞
فقد حملت مني ابن سبعين سالكاً ۞ سبيلاً عليها يسلك الثقلان ۞
كما حمل المهد الصبي وقبلها ۞ دعوت أسود الغيل بالروان ۞
ولي بعدها أخرى تسمى جنازة ۞ حبيبه يوم المبتدا داني ۞
تسير على أقدام أربعة إلى ۞ ديار البلى معقودة بغماني ۞
وإني على عتب الردى في جوارحي ۞ وما كفّ من خطوي وبطش بناني ۞
وإن لم يدع إلا فؤاداً مروعاً ۞ به غير باق من الحدثان ۞
يلوم تحت الحجب منه حكمة ۞ إلى أذن تصغي لنطق لساني ۞
لأعلم أني ميت عاوده ۞ وما قليل في غد هو فاني ۞
وإن فالأرض عرياناً حاتماً ۞ تراصد من أكلي حصو زادان ۞
به شرب عمر الورى بيحابع ۞ تركي ولا يانا كلا لفلان ۞
غداً فاعن يشكو الظما وهو راجع ۞ ما يلقي يوماً له سقيان ۞
إذا غاضنا بالنسل نمى بعوكه ۞ بلا أولاد لم يهلك تان ۞
إلى ذات يوم لا ترى الأرض وارثاً ۞ سوى الله من بر براه وجان ۞

قوله عليه السلام يروى دون هموم همّ نفسي أي دون الهمّ الذي قد كانت تعتريني لأجل أحوال الناس فصدقني رأيي فصدفني أي صرفني أي عن كذا وفي المثل صدفني سنّ بكره لأنه لما نفر قال له هدع وهي كلمة تسكن بها صغار الإبل إذا نفرت والمعنى أن هذا الهم صرفني عن الهم الذي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصفة هي التي لا تفكر في أمر شيء من الموجودات أصلاً إلا الله تعالى وحده وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى عالية جداً وهي أن لا تفكر في شيء قط إلا في الله وحده وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى تجل عن الذكر والتفسير ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ وقد ذكرها هو عليه السلام فيما سبق وهي أن لا تفكر في شيء أصلاً لا في المخلوق ولا في الخالق لأنه قد قارب أن يتحد بالخالق ويستغني عن الفكر فيه قوله وصرفني هواي أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعية والقيام بما يقوم به الأئمة قوله وصرح لي محض أمري نصب محض ورفعه من نصب فتقديره عن محض أمري فلما حذفت الجار نصب ومن رفع جعله فاعلاً وصرح كشف أو انكشف قوله وأفضى إلى جد لا يكون فيه لعب أي وأفضى بي إلى جد لا يكون فيه لعب المعنى أن همومه الأولى وقد كان يمكن أن يتخللها وقت راحة أو دعابة لا تخرج بها عن الحق كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً فلما الآن فقد حدث عنده هم لا يمكن أن يتخلله من ذلك شيء أصلاً وبذا بالعرض من الحالين أعني الأولى والثانية على مكان اللعب لا بنفس اللعب

فلا

ولا علوم من قوله أفضى بي هذا الهم إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب ولكن يلزم من ذلك أنها فيها قد كانت تمكن ذلك فيها إمكاناً محضاً على أن اللعب عبر مستنكر إذا لم يكن باطلاً ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله المؤمن دعب لعب وكذلك القول في قوله وصدق ولا يشوبه كذب أي لا يمكن أن يشوبه كذب وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهوم منهما المشهور بل هو من قولهم صدقوا اللقاء ومن قولهم حمل عليهم فما كذب قال زهير
ليث بعثّر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا
أي أفضى هذا الهم إلى أن صدقني الدنيا حربها كأنه جعل نفسه محاربة للدنيا أي صدقني الدنيا حربها ولم تكذب أي لم تجبن ولم تحجم عن شدة الجلاد ولدته فقال وجدتك بعضي قال الشاعر
وإنما أولادنا بيننا ۞ أكبادنا تمشي على الأرض ۞
لو هبت الريح على بعضهم ۞ لامتنعت عيني من الغمض ۞
وغضب معاوية على ابنه يزيد فهجره فاستعطفه له الأحنف قال يا أمير المؤمنين إن أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة فإن غضبوا فأرضهم وإن سألوا فأعطهم ولا تكن عليهم قفلاً فيملوا حياتك ويتمنوا موتك وقيل لأعرابية أي ولدك أحب إليك قالت الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يقدم وغضب الطرماح على امرأته فشفع فيها ولد منها صمصام وهو لم يبلغ عشراً فقال الطرماح
أصمصام إن تشفع لأمك تلقها ۞ لها شافع في الصدر لم يتبرّح ۞
هل الحب إلا أنها لو تعرضت ۞ لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي ۞
أحاذر يا صمصام إن مت أن يلي ۞ تراثي وإياك امرؤ غير مصلح ۞
إذا صكّ وسط القوم رأسك صكّه ۞ يقول لها الناهي ملكت فأسجح ۞
وفي الحديث المرفوع ريح الولد من ريح الجنة وفي الحديث الصحيح أنه قال للحسن والحسين عليهما السلام إنكم لتجبّنون وإنكم لتبخّلون وإنكم لمن ريحان الله ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها
يا حبذا ريح الولد ۞ ريح الخزامى في البلد ۞
أهكذا كل ولد ۞ أم لم يلد قبلي أحد ۞
وفي الحديث المرفوع من كان له صبي فليستصب وأنشد الرياشي
من سره الدهر أن يرى الكبدا ۞ تمشي على الأرض فليرَ الولدا ۞
الأصل أوصيك بتقوى الله أي بني ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة وقوه باليقين ونوره بالحكمة وذلله بذكر الموت وقرره بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام واعرض عليه أخبار الماضين وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا وأين حلوا ونزلوا فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلوا دار الغربة وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم فأصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لا تكلف وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال
الشرح قوله وأي سبب أوثق إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبر عنه بقوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً والآية قوله ثم أتى بلفظتين متقابلتين وذلك من لطيف الصنعة فقال أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة